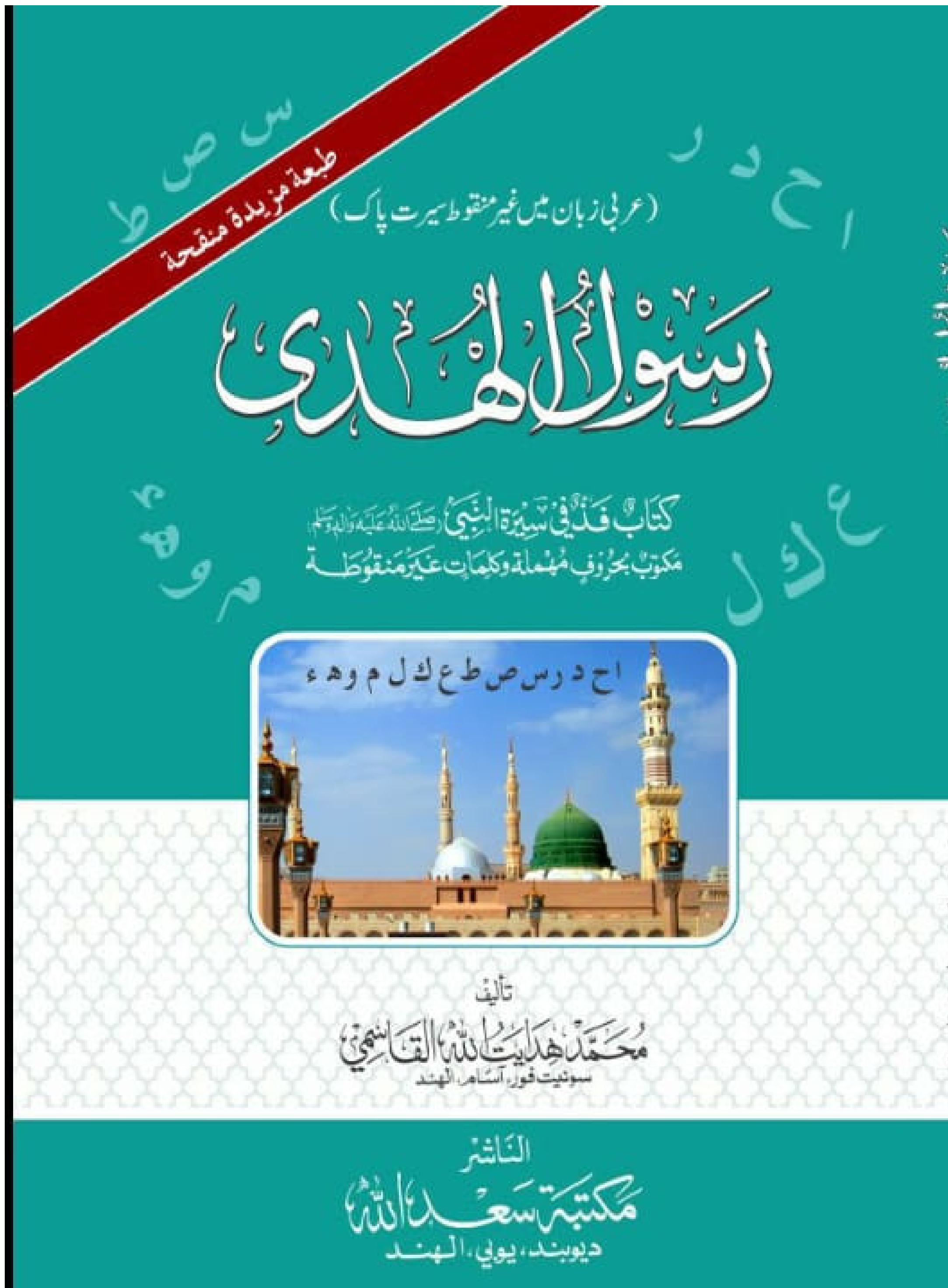

طبعة مزيدة منقحة
(عربی زبان میں غیر منقوط سیرت پاک)
رسول الهدى
كتاب فذ في سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم
مكتوب بحروف مهملة وكلمات غير منقوطة
اح د ر س ص ط ع ك ل م و هـ ء
تأليف
محمد هداية الله القاسمي
سوتيا فور، آسام، الهند
الناشر
مكتبة سعد الله
ديوبند، يوبي، الهند

رسولُ الهدى في ضوء البلاغة والنقد

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبنوره تتقشع الظلمات ، ومِن قدرتـه تنبثـق عجائـبُ المؤتلفاتِ وغرائبُ المختلفات . وأصلي وأسلِّمُ على أفصحِ مَنْ أقلَّتْه الغـبراءُ ، وأبْلَـغِ مَـنْ أظلَّتْـه الخضراء ، وأوّلِ مَنْ أُوْتِيَ جوامعَ الكلم ورَوائعَ الفِكَـر ، وآخِـرِ مَـنْ يعتـزُّ بسـيرته تـاريخُ الـتراجِم والسِّيَر ، وعلى آله وصحابته الغُرِّ الميامين ، الـذين شـادوا منـارةَ الـدين ، وأوقـدوا شـمعةَ الإيـمان واليقين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، وبعد :

فإن السيرةَ النبوية العطرة هي المصدرُ الفيّاضُ من مصـادر التـاريخ ، والقطـبُ الـذي تـدور حولَه رحَى الحياةِ الإسلامية ، والخصيصةُ الإسلاميةُ التي تَميَّزَ بها المسـلمون مـن بـين سـائر الأمـم والشعوب . وإذا كان القرآنُ والحديثُ النبويُّ وَحْيَيْنِ من عالم اللاهوت فإن السيرةَ النبوية تَرْجَمتُها في عالم الناسوت ، وإذا كانا سطورًا في القراطيس فإنَّ السيرةَ تمثيلُها عـلى مسرـح الحيـاة والنشـاط، وإذا كانت سِيَرُ العظماء كالإسرائيليات في كتب التفاسير فإن سيرة النبي ﷺ كالآيات المحكـمات في أم الكتاب ، وإذا كانت حكاياتُ ملوكِ الأرض وأقطابِها كأساطير الزمن الغابر في الكتب المأروضة فإن سيرة المصطفى ﷺ أنشودةُ المؤمنين على فم الزمان .

إنَّ صلةَ المسلمين بسيرة نبيهم ﷺ لم تكن قطُّ كصلة الناس بسير العظماء الغـابرين وقصـص الأبطال الفاتحين ؛ وإنما كانت صلةَ قلبٍ وإيمانٍ ، وحُـبٍّ وحنـانٍ ، وعقيـدةٍ ووَلاءٍ ؛ ولهـذا تَعبَّـدُوا بكتابة السيرة وتحريرها، وتهافتوا على حفظها وروايتها تهافُتَ الفراش عـلى النـور ، وتهـالكوا عـلى دراستها وتشرُّبها تهالُكَ الذُّباب على الشراب ، حتى سجَّلُوها بين دفافِ كتبهم بكلِّ دقيق وجليل . ثم تَناقلَها الأبناءُ عن الآباء ، وتَخاطفَها الخلفُ عن السلف حتى وصلتْ إلى كل بلـدةٍ تُظلِّلُهـا رايـةُ الإسلام ، وإلى كلِّ قوم داخلتْ قلوبَهم بشاشةُ الإيمان .

ثم إنَّ الآخِرينَ لم يكونوا قطُّ لِيشبَعُوا مما دبّجه الأولون ؛ وإنما ظلّوا يكتبـون السـيرةَ العطـرةَ بكل لغةٍ نثرًا وشعرًا ، وتفنّنوا في كتابتها بكلِّ أسلوبٍ ، ونَثَرُوا جواهِرَها بوجوهِ البيـان مـن الإيجـاز والإطناب والمساواة ، ونشروا عبيرَها بصنوف الكلام من التقفية والتسجيع والترصـيع ، وأبـدعوا

لها الصناعات وأتوا بالخوارق والعجائب .

فليس بدعًا أنْ كانَتِ السيرةُ النبوية هي أشهرَ الموضوعات الإسلامية التي كثر فيها التأليف والكتابة والنشر ، وتراكمت فيها الكتبُ والأسفار في لغاتٍ مختلفةٍ ، وأساليب متنوعة ، وتعبيرات منطوقة ، وصناعاتٍ مطروقةٍ .. فكلُّ ما يُكتب اليوم في السيرة – بعد ذلك الكم الهائل – إنما سيكون {بضاعتَنا رُدَّتْ إلينا} ، أو يُعدُّ تكرارًا للقول الـمُعاد المكرور.

هذا ، ولقد شدَّ ما تملَّكَنا العَجبُ العُجاب حينما فوجئنا بكتابٍ فريدٍ في نوعه ، فذٍّ في منهجه، عبقريٍّ في أسلوبه ، يستوي فيه تحيّرُ العالم وتعجّبُ الجاهل ، ويُعجَبُ به الحابلُ والنابل ، ويلهج بذكره القريب والغريب . وقد ظَهَرَ منذ أيامٍ في مدينةِ ديوبند من أرض الهند ، فحطَّم الأرقام القياسية ، وفاق حسبانَ الحاسبين بصناعته البديعة ، وخيَّمَ على الأوساطِ العلمية والأدبية بشهرته المستفيضة ، وشَغَلَ الأفواهَ والأسماعَ بذكره المرفوع ونَغْمَتِه النَّشَاز !

ألا وهو كتابُ "رسول الهدى" الذي دبّجَتْه يراعةُ الشيخ هدايت الله القاسمي الآسامي / حفظه الله في السيرة النبوية ، فكان مأثرةً لعلماء الهند ، ومفخرةً للمكتبة الإسلامية ، وإكليلًا على مفرق الضاد . ولعله ـ بعدُ ـ في ثوبه الحاضر أوّلُ كتاب في اللغة العربية اجتمعتْ له خصائص ومميزات ، ربما لم تجتمع لأي كتاب آخر في التاريخ الإسلامي الطويل المديد .

فالخصيصة الأولى لهذا الكتاب هي أنه مصبوبٌ في قالَب الإهمال ، مكتوبٌ بالكلماتِ المهملةِ غير المعجمةِ ، مصوغٌ من ١٤ حرفًا فحسب ؛ فهو كتابٌ بلا نقط من أوله إلى آخره .. ولا شك أن صناعة الإهمال هي أشدُّ الصناعات صعوبةً وعسرًا ، لم يَطْرُقْها إلا أفذاذُ الكُتّاب في ثنايا التاريخ ؛ لأنَّ حصر القلم في نطاقِ الإهمال بمعزل عن الإعجام أمرٌ صعبُ القيادِ ، وطريقٌ غايةٌ في الوعورة؛ ولا سيما إذا كانَ الموضوعُ محدّدًا ، والمجالُ محدودًا ، والتمسكُ بالصدق والأمانة لازمًا ، والخضوعُ لقوانين التحفظ والحيطة محتومًا ، والانحرافُ عنها بدعةً ومأثمًا .

فلو أنت نقّبتَ بين أوراق الكتب عن قائمةِ فُرسانِ هذا المضمار لم تجد إلا رجالًا معدودين على الأصابع ، عالجوا هذه الصناعةَ في بعض كتاباتهم الحرّة ، دونَ أن يمسَّ أحدٌ منهم موضوعَ السيرة المحدد ، وكأنهم جميعًا هابُوْا أن يطرقوا هذا الموضوعَ الحسّاسَ في هذه الصناعة الصعبةِ خشيةَ الإخفاق أو الانزلاق ، حتى مضت هذه القرونُ الأربعةَ عَشَرَ ـ واحدًا تِلْوَ الآخر ، دون أن

تجودَ بكتابٍ واحدٍ في السيرة النبوية بالعربية المهملة مثلِ "رسول الهدى" .

مضتِ الدهورُ وما أَتَيْنَ بمثله * ولقد أتى فعجزنَ عن نظرائه.

والخصيصة الثانية للكتاب أنه – مع التزامه لصناعة الإهمال – مستوعِبٌ للموضوع ، شاملٌ لجميع مراحل حياة النبي ﷺ في أكثر من ٤٠٠ صفحة . فقد صدَّر المؤلفُ كتابَه بمقدمة طويلةٍ ، ثم ابتدأه بتصوير أحوالِ مكة والعرب قبل الميلاد ، ومكانةِ آلِ الرسول ، ورئاسة عبد المطلب، ومناقب وَالِدَي النبي ﷺ ، وأهم الإرهاصات كقصة أصحاب الفيل ..

ثم مضى يَسْرُدُ مشاهدَ حياته ﷺ كلَّها مشهدًا مشهدًا، بدءًا من مولدِه وحضانته في بني سعد و شق صدره ؛ وعبورًا إلى فقده لأمه ، وإوائه إلى كنف جده ثم عمه ، وسفره إلى الشام ، ولقائه مع الراهب ، ثم بيع سلعة خديجة ، وزواجه معها ، وأولاده ، وبعثته ، ودعوته ، وتعذيب المشركين للمؤمنين كبلال وآل ياسر ، وقصة الإسراء ، وإسلام عمر؛ ومرورًا بالهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة، وأهم الأعمال ، والغزوات والسرايا ، وعمرة الوداع ؛ وانتهاءً إلى مرضه ووفاته، وأحوال أصحابه ، وخلافة أبي بكر ، وفي نهاية المطاف عقد بابًا سجَّلَ فيه مجملَ الشمائل النبوية .. كل ذلك في بيان مشرق وتصوير بديع وتحليل دقيق . والفهرسُ طويلٌ ملحقٌ بآخر الكتاب .

ولقد نجح الكتاب أيما نحاج في استيعاب موضوع السيرة النبوية متمسكًا بأذيال الصدق والحيطة في نقل تفاصيل السيرة وجزئياتها ، وصادرًا عن الدقة والأمانة في عرض أحداثها وسرد وقائعها ، ومكتفيا بما اتفق عليه العلماء المؤرخون من قبل .

والخصيصة الثالثة لهذا الكتاب هي أنه – مع التزامه لصناعة الإهمال واستيعابه للسيرة – مصوغٌ في بلاغةِ أسلوب وفصاحةِ ألفاظٍ ورشاقةِ تركيبٍ ونصاعةِ بيانٍ . مع أن التزامَ هذه الصناعةيضطر المرءَ بطبيعة الحال إلى ارتكاب الركاكة والخروج على البلاغة ، كما هو الحالُ في كلِّ ما كُتِبَ وأُلِّفَ بصناعة الإهمال من قبلُ؛ ولكن "رسول الهدى" قد حبَّرَ المؤلفُ سطورَه بالتعبيرات المجنَّحة والكلمات المهندَسَة ، وصاغَ عباراتِه بالصياغة المسبوكة والصنعة المحبوكة . إذا تصفحتَ أوراقَه وجدتَه في جل مواضعه كتابًا متخيَّرَ الفِقَر ، بليغَ الأسلوب ، محكَمَ النسج ، رشيقَ التراكيب، بديعَ الإنشاء ، رائقَ الديباجة ، حُلوَ الجرس والرنين .

وقد قرَّظَ الكتابَ وأسلوبَه البلاغيَّ الدكتورُ خليل عبد الرحمن المبارك / حفظه الله بجامعة

الملك سعود بن عبد العزيز، الرياض/ المملكة العربية السعودية، إذ قال :

[فألفيته كتابا فائق الحسن ، سامق الفضل ، محبّرا بجواهر الأدب ، وبدائع الكلم ، حوى دررًا، وضم صُورًا، حول حياة سيد الورى، وإمام الهدى، صاحب الطلعة البهية، والنفس الزكية].

كما سلَّط الضوءَ على ذلك الباحثُ محمد يعقوب الأعظمي القاسمي طالبُ الدكتوراه في الجامعة الإنسانية / بماليزيا ، حيث قال :

[قرأت من الكتاب نتفا متناثرا فأعجبت به إعجابًا ؛ ذلك لأن الكتاب سطور مذهبة مؤلفة من سمط اللآلئ والدرر ، وعقد منظوم من سبائك وزبرجد ... يا مَنْ تطلبُ العلم ! خذ الكتابَ واقرأ صفحةً أو قطعةً من أي موضع كان ؛ وإذا قرأت من لفظه الرقيق المعرب البديع خُيّلَ إليك كأنما هو ـ المؤلف ـ رجلٌ نشأ ببادية علياء هوازن، أو كأنما أدبته امرأةٌ من سفلى بني تميم]. (١)

أما الخصيصة الرابعة فهي أن هذا الكتاب – مع التزامه لصناعة الإهمال واستيعابه للسيرة وتميزه ببلاغة الأسلوب – متنزِّهٌ عن مخالفة القواعد والأصول ؛ فهو كتابٌ جلَّتْ عربيتُه عن الأخطاء النحوية والصرفية ، وتنزهتْ صياغتُه عن المحرمات اللغوية ، وتحرَّز قلمُه عن اقترافِ الجرائم الكتابية، وبَعُدَتْ صناعتُه عن انتهاك حرمات العربية وقداستها .. مع أنَّ هذه الأخطاءَ كلَّها قد ارتكبها جميعُ ما عدا "رسولَ الهدى" من الكتب المؤلفة بصناعة الإهمال ، سواء في ذلك سواطعُ الإلهام ودرُّ الأسرار ، أو دواءُ المعلول وخطبةُ الحريري .

فهذه الخصائص الأربع – صناعة الإهمال ، واستيعاب الموضوع، وبلاغة الأسلوب ، والتنزه عن الأخطاء – هي مما لم يجمعه كتابٌ غيرُ رسول الهدى على الإطلاق . أما في السيرة فلم يظهر كتابٌ عربيٌّ آخرُ على مدى التاريخ الإسلامي الممتدِّ من لَدُنْ عصرِ التدوين إلى يومنا هذا . وأما في الميادين الحرة فقد ظهرت صفحاتٌ أو كتبٌ ، إلا أن جميعَها خاوية عن هذه الخصائص المذكورة الأربع كلًّا أو بعضًا ، كما سنكشف القناع عن ذلك من خلال المقارنات الآتية .

إياك وأن تظن أن هذه المقارنات إنما هي محاوَلَةٌ للقدح في كتب الآخَرين أو للحطّ من شأنها والنيل من قيمتها ، فنحن نستعيذ بالله من هذا العبث والهراء ؛ علمًا منا بأنَّ ما رَفَعَه الله لم يضَعْه قدحُ

(١) مقتبس من : مجلة الثقافة الإسلامية الصادرة عن الجامعة القاسمية بشاهي مراد آباد / الهند، ص: ١٦ – ١٨/ العدد: ١ المحرم الحرام ـ ربيع الأول ١٤٤٠ هـ سبتمبر ـ نوفمبر ٢٠١٨ م .

قادحٍ ، وأن ما وَضَعه الله لم يرفعه مَدْحُ مادحٍ . غيرَ أن الأمانة العلمية هي التي تحتم علينا أن نعقد المقارنات ؛ لكي نستجْلِيَ في مرآتها محاسنَ الكتب ومساوئها، ونستشفَّ تحت مِجْهرها عِلَل الكلام وزحافاتِه ، وسلامةَ البيان وعيوبَه ، حتى نُوفِّي كلَّ كتابٍ حقَّه ، ونؤتي كلَّ ذي فضل فضله ، فمن رآى في المرآةِ وجهَه شاحبًا فلا يَلُمْ إلا وجهَه .

المقارنة بين رسول الهدى وسواطع الإلهام :

"سواطع الإلهام" كتابٌ في التفسير ، وعلى الأصح : مجموعةُ كلماتٍ توضيحيةٍ فيما بين كلمات الله التامة ، على شاكلة تفسير الجلالين . ألفه بالحروف المهملة عالمٌ شيعيٌّ من جلساء إمبراطور الهند "أكبر" وهو أبو الفيض الفيضي الناكوري (المتوفى ١٠٤٤هـ) .

هذه المجموعةُ التوضيحيةُ لئن تزيَّتْ بزِيِّ الإهمال فإننا حين نجوسُ خلالَها ونستجلي هلالَها، نجد غديرَها ضَحْلَ المياه في الخصائصِ الأربعِ المذكورة بحذافيرها . وذلك كما يلي :

التقصير في الخصيصة الأولى : صناعةِ الإهمال:

١ - : كتب الفيضي في مقدمته الفضفاضةِ أمورًا كثيرةً ، عَنْوَنَ كلَّ أمر منها بقوله: (ساطعه) حيث حذَفَ نُقطتَي التاءِ المربوطةِ وجَعَلَها هاءً مهملةً، وذلك في زهاءِ ١٣٠ موضعًا . ولا مراء أن حَذْفَ نُقَطِ التاء المربوطة جائزٌ في القراءة عند الوقف ؛ ولكنه غيرُ جائزٍ في الخط والكتابة؛ بل يعد ذلك اعتسافًا لغويًا وخطأً رسميًّا ارتكبه الفيضي زهاءَ ١٣٠ مرةً في سواطع الإلهام .

٢ - : أكثر الفيضي من استعمال حرفِ [حٍ] بمعنى (حينئذٍ) كقوله : هو حٍ ككلامك للمكرم (ص: ٦٠ / البقرة)، وقوله: والمراد حٍ محمد صلعم (ص: ٧ / يونس)، وقوله: وحصل للولد حٍ حال (ص: ٢٥٣/ البروج)، وقوله: المراد حٍ أهل إرم (ص: ٢٧٩/ الفجر).

والحقُّ أن مثلَ هذا الاختصار للكلمة يُعَدُّ من نحت الأعاجم المكروه ، وقد رفضه الذوقُ الأدبي السليم والأسلوب البلاغي القويم قديمًا وحديثًا .

٣ - : كما أكثر الفيضي من استعمالِ نَحْتٍ عجميٍّ آخر ، وهو رسمُ [ص] أو [صلعم] بدلًا من (صلى الله عليه وسلم) إثرَ اسم الرسول ﷺ في كل كتابه. ويُظَنُّ أن كلمةَ (صلعم) اخترعها العجم في حدود التسعمائة للهجرة ، وأولُ مَنْ رمز للتصلية بحروف (صلعم) قطعت يدُه (كما في

معجم المناهي اللفظية / حرف التاء). ولا يختصر كتابتها بنحو (صلعم) فإنه عادة المحرومين (الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي/ ص: ١٦٨). وقال الفيروزابادي: لا ينبغي أن ترمز للصلاة كما يفعله بعض الكسالى، والجهلة، وعوامُّ الطلبة فيكتبون صورة (صلعم) بدلاً من [صلى الله عليه وسلّم] (فضل الصلاة على النبي ﷺ (١ / ٩).

فهذه المكروهات الثلاثة قد خسر فيها الفيضي جمالَ اللغةِ ليربحَ أداةَ الكتابة في صناعة الإهمال ، فلولا ارتكابُه لها لما تمتْ له صناعتُه . أما رسولُ الهدى فليست فيه كلمةٌ معجمةٌ جُعلَتْ مهملةً اعتسافا أو اعتباطا ، ولا فيه نحتُ الأعاجم ، وقد استعملَ للتصلية كلمةَ (صلى الله على روحه وسلم) ، وللتسليم كلمةَ (على رُوحِه السلام ، أو سلامُ الله على روحه) .. مما يمنح رسولَ الهدى وسامَ الامتياز والتفوق على سواطع الإلهام في خصيصة الإهمال ذاتِها .

التقصير في الخصيصة الثانية : استيعابِ الموضوع :

١ - : إذا كان سواطع الإلهام عبارةً عن ألفاظٍ توضيحيةٍ في ثنايا كلمات الله التامة ، كانت أكثرُ كلماتِ الفيضي – إذا جردتْ عن الآيات – مفرداتٍ أو مركباتٍ ناقصةً ، لا جُمَلًا مفيدةً تامّةَ النسبةِ . أما ما فيه من الجمل التامة فلو جُمعت كلُّها في مكانٍ واحدٍ ، لكانت كتابًا صغيرا، وربما كان أصغرَ من رسول الهدى ، إذن فليس سواطع الإلهام كتابًا مستقلًّا مستوعبًا لموضوع محدد . أما رسول الهدى فهو كتابٌ متكاملٌ، مِلْؤُه جملٌ تامةٌ مترابطةُ الأجزاء، متناسقةُ الحلقات ، تسيل مطّردةً نحو الهدف ، وتجري متكاتفةً يأخذ بعضها بحجز بعض .

٢ - : ثم إنّ الفيضي لم يلتزم أن يفسِّر كلَّ آيةٍ يمر بها خلالَ عمله التفسيري ، بل فَسَّرَ من الآيات ما طاوعَه فيه الكَلِمُ المهملُ ، وأغفلَ منها ما لم يُسعِفْه فيه الكلم المهملُ . فمثلُ هذا العمل أدخَلُ في الموضوع الحرّ منه في الموضوع المحدد ، فهو عملٌ سهلٌ بالنسبة إلى "رسول الهدى" الذي جعلَ نصْبَ عينيه استيفاءَ الكلام ، فمضى يسجل مشاهدَ السيرة المتفرقةَ كلَّها في تسلسلٍ مطّردٍ ونظامٍ متّسق ، دونَ أن يَعُوقَ مسارَه التزامُ الإهمالِ أو نُضوبُ الـمَعينِ .

التقصير في الخصيصة الثالثة : بلاغةِ الأسلوب :

١ - : سواطعُ الإلهام كتابٌ مَحْشُوٌّ بالكلمات الغريبة الحوشية النابية والألفاظ الشاذة المتنافرة،

التي ربما تبلغُ ثلاثينَ في المئة، مما جعل فهم كلام الله مباشرةً ، أيسرَ من فهمه عن طريق هذا التفسـير العسير . فمثلًا استخدم الفيضي كلمةَ (اللَّاؤُا) بمعنى (الذين) في كل صفحةٍ تقريبًا، كقوله: وهـم الأولاد اللاؤا عصد ولّادهم (ص: ٧ / النساء)، و: اللاؤا عدوا الحد (ص: ١٢/ يونس).

ولا يخفى أن هذه الكلمة غايةٌ في التنافر والغرابة والشذوذِ ، وقد هَجَرَتْها اللغةُ العربيةُ القُحّـةُ هجرًا مغلَّظًا ، فالإكثار من مثل هذه الكلمات يَحطُّ بالكلام من درجة البلاغـة إلى دركـة الابتـذال . أما رسول الهدى فملآنُ بالكلمات المتداولة المستحسنة والألفاظ المهندَسةِ المستملَحة ، ولـيس فيـه من الكلم الغريب إلا اثنتانِ أو ثلاثٌ في المئة مشروحةً في الهوامش ، كما أنه استخدم كلمةَ (الأُلـٰى) بمعنى (الذين) ، وهي كلمةٌ فصيحةٌ وردت في حديثٍ: "إن الأُلـٰى قد بغوا علينـا ، إذا أرادوا فتنـةً أبينا". (البخاري رقم: ٢٨٣٧). وأقربُ مَا يكون الكتابُ من البلاغة إذا كان أبعـدَ مـا يكـون عـن غرابة الكلمات وتنافر الحروف وشذوذ الألفاظ .

٢ - : الجمل التامة في السواطع لم تسلم جُلُّها من ضعف التـأليف. فمـا لا يخفـى أنَّ جملـةً - اسميةً أو فعليةً - لا تكون جزءًا لجملةٍ إلا إذا سُبِقَتْ بأحد الأحرف المصدرية أو وَقَعتْ في صـورةٍ من صُوَرِ التعليق، فلا يقال مثلًا: (أريدُ آكُلُ ، أو أَوَدُّ أَلْقَاك ، أو بَلَغَهم زيـدٌ عَـدُوٌّ) ؛ بـل لا بـد مـن الإتيان بالأحرف المصدرية نحو: (أَريدُ أَنْ آكُلَ ، و أَوَدُّ لَوْ أَلْقَاك ، و بَلَغَهم أَنَّ زيدًا عَدُوٌّ) ، أو يُـؤتَى بالكلام في صور التعليق بعد أفعال القلوب ، فيقال مثلًا : أَرَى لَآكُلَنَّ (باللام المؤطئة للقسم) ، ولا أدري مَتَى ألقاكَ (بالاستفهام) ، وعَلِمُوا ما زيدٌ إلا عَدُوٌّ (بالنفي).

إذا علمتَ هذا فاعلم أن الفيضي يصوغ العباراتِ فَوْضَى، وينسج الكلامَ في تراكيب مهلهلـة، ويجعل الجملَ أجزاءً لجملٍ أخرى بطريقة عشوائيةٍ تعسفًا واعتباطًا ، كقوله : وَرَدَ هو سِرٌّ مـا علمـه إلا الله .. وَرَدَ مرادُه اللهُ والملَكُ (ص: ٥٩/ البقرة) ، و: وَرَدَ المرادُ هو الـرُّوعُ (ص: ٦١/ البقـرة) ، و: وَرَدَ هو اسم ملك .. وَرَدَ هو السوط السامع (ص: ٧١/ البقرة) ، وقولـه: {وأنـتم تعلمـون} "هو اللهُ الواحدُ أَسَرَكم " (ص: ٧٤ / البقرة) . وما إلى ذلك .

وهذا كله من مظاهر ضعف التأليفِ الذي هو أكبرُ أسباب الطعن في الكلام ، فيسـتلزم كـونُ الكلامِ بليغًا أن يخلو منه كما يستلزم كونُ الحديث صحيحًا أن يخلو راويْه من الكذب .

٣ - : اختلق الفيضي لكثيرٍ من المفردات جموعًا من تلقاء نفسه كـ : وُلّاد لوالد في قوله: اللاؤا

عصد وُلَّادُهم (ص: ٧/ النساء) ، و: أُهَّال لِآهِل في قوله : وحال الكلام مع الأُهَّال (ص: ٨ / النساء)، و: وُكَسَاء لأَوْكَس في قوله: وُكَساء الأحلام (ص: ٩ / النساء) ، و: رُدّاد لرادٍّ في قوله: رُدَّادِ آلام الله (ص : ٦/ يونس) ، و: وُدّاد لوَدُودٍ في قوله: وُدّادَكم (ص:٦/ الممتحنة) ، و: عُدّال لعادل بمعنى الكافر في غير مرة.

وغيرُ خافٍ أن مثلَ هذه التصرفات لو أُبيحت لكل فردٍ ، لانفتح البابُ لأعداء العربية على مصراعيه، ولاستطاعَ كلُّ مَنْ لا يحمل قلبُه غيرةً على لغةِ الضاد أنْ يمسخ صورتَها الأصيلة مسخًا ، ويمزق إهابها الغضَّ كلَّ ممزَّقٍ ، ويشوّه وجهَها الوَضيء . أما إن لم تكن هذه التصرفاتُ مباحةً لكل فردٍ فقد ارتكب الفيضي هذه الجرائمَ اللغوية اعتسافًا أو اضطرارًا . أما "رسول الهدى" فلن تجد فيه شيئًا من مظاهر مثل هذا الاعتساف المقيت أو الاضطرار البغيض.

التقصير في الخصيصة الرابعة : التنزُّه عن الأخطاء :

سواطعُ الإلهام كتابٌ مشحونٌ بما لا يُحصَى من مخالفات القياس، مكتظٌّ بالأخطاء النحوية والصرفية واللغوية ، وذلك كما يلي :

١ - : لما شرع الفيضي في تفسير الفاتحة بدأه بقوله (سورة الفاتحة) ثم أردفها بقوله: (وهو أول السور) ، فقد استخدمَ لـ "السورةِ" ضميرَ (هو) مكانَ (هي) سبعَ مراتٍ في تفسير هذه السورة وحدها ، وذلك لإهمالِ الأولِ وإعجامِ الثاني ، إلا أنه في نفس السياق أتي بِستَّ مراتٍ بضمير (ها) كقوله : " ولها أسماء ..إلخ " (السواطع / ص: ٤٥) .. ولا شك أن استخدامَ ضميرِ (هو) للسورة خطأٌ فاحشٌ لا يغتفره النحاة ، ولا تتحمله اللغة العربية القحةُ المضريةُ.

٢ - : من عادةِ الفيضي في كل كتابه أنه ينصبُ الاسم مفعولًا بعد الأفعال اللازمة أو الأفعال المستعملةِ بحروف الجر ، كقوله :{وما يشعرون} عَوْدَ مكرِهم ومحصولَ عملهم (ص: ٦٥/ البقرة) ، وقوله: {ولكن لا يشعرون} طلاحَهم (ص: ٦٦/ البقرة) ، والصواب جرُّ الاسم بالباء بعد (شَعَرَ) . وكقوله: {إن كنتم مؤمنين} طرسَكم (ص: ١١٩/ البقرة) ، والصواب جرُّ الاسم بالباء بعد (آمَنَ). وكقوله: حسمًا لطمعه صلعم إسلامَهم (ص: ١٣٧/ البقرة)، والصواب جرُّ الاسم بـ في بعد (طمع) . و كقوله : وَصَلَ المرادَ وسَلِمَ المكروهَ (ص: ٦/ المؤمنون) ، والصواب جرُّ الاسم بـ مِنْ بعد (سَلِمَ). وقوله: لما أرسل رسول الله صلعم ولدَ عمرٍو مع رهطٍ ممرًّا معهودًا

للأعداء وأمَرَهم ورودَهم .. وهمّوا هلاكَهم (ص:٣٤٦/ العاديات) ، والصواب جرُّ الاسم بالباء بعدَ (همُّوا) ، وجرُّ الاسم الثاني بـ "إلى" بعد (أرسل) ، وبالباء بعدَ (أَمَرَ).

هذا غيض من فيض ، ومعلومٌ أن الفيضي إنما اضطر إلى ارتكاب هذه الأخطاء فرارًا من النقط . وليتَ شعري ما الذي دعاه إلى ارتكابها وقد كان في وسعه أن يكتب كل ذلك بتغيير الصياغة إلى صياغة أخرى بدلًا من ارتكاب الجرائم ، كما فعل مؤلف رسول الهدى.

٣ - : كثيرًا ما يزيد الفيضي أَلِفًا بعد واو جمع المذكر السالم المضاف، كقوله: مسلموا أهل الطرس(ص: ٦١/ البقرة) ، وقوله : مدركوا المرام (ص: ٦٢/ البقرة) ، وقوله: مصلحوا الأعمال (ص: ٦٦/ البقرة)، وقوله: سالِكُوا مصادرِكم (ص: ٦٨/ البقرة)، وقوله: أولوا هؤلاء الأعمالِ (ص: ٨/ المؤمنون) ، وقوله : عما أوّلَه أولوا الأهواء (ص: ٢٦٥/ الأعلى).

واعلم أن هذه الألف إنما تزاد بعد واو الضمير في الفعل الذي لم يتصل به نونٌ إعرابية أو ضميرٌ منصوبٌ كـ فعلوا ولم يفعلوا . فإن اتصل به أحدُهما ، لم تُزَدْ كـ فَعَلُوْه ويفعلون . أما في الاسم فلا تزاد فيه الألفُ مطلقًا ، إلا ممن نَدَّ عنه فنُّ الخط والرسم والإملاء .

٤ - : قد يخطئ الفيضي في تفسير كلمةٍ بما يُضادُّها ، كتفسير ضميرِ (هم) بكلمةِ (الصلحاء) في قوله : {وإذا قيل لهم} لهؤلاء الصلحاء إصلاحًا وإسدادًا (ص: ٦٧) ، وهو خطأٌ لا ريب فيه ، إذ المراد به هنا المنافقون ، فالصواب : تفسيرُ (هم) بأهل الطلاح مثلًا.

٥ - : قد يُقْحِمُ الفيضي واوًا بين الشرط والجزاء جزافًا واعتسافًا ، كقوله : لما أرسل الله أول طرسه كلاما مسددا - إلى قوله - وأورد حالَ رهطٍ (ص : ٦٤) . والصواب: (أَوْرَدَ) بإسقاط الواو ؛ لأنه جزاءٌ للشرط قبله .

وبعد ، فهذه كلُّها نماذجُ يسيرةٌ لما في سواطع الإلهام من الغرابة والشذوذ ، وعدم الوفاء بالموضوع ، وضعف التأليف ، والأخطاء النحوية واللغوية والإملائية . وقد أخذناها عليه خلالَ تصفُّحِنا لصفحاتٍ منه معدوداتٍ من هنا وهناك . والشررُ المتطاير يدل على الأَتُّونِ المستعر، والقطراتُ القلائل تنبئ عما وراءها من الدِيَم الهواطل. فلو أننا استقْصينا هذا الكتابَ بحثًا ودراسةً لأحصينا عليه أشياءَ كثيرةً جدًّا ربما يتكون منها كتابٌ برأسه، ولكننا فضّلنا الاقتصارَ على هذا النزر اليسير كنموذج ؛ وكفَى بالغيض المكشوف دليلًا على الفيض المستور .

أما كتابُ "رسول الهدى" فما وَسِعَنا – وقد درسناه بدقةٍ وإمعانٍ – أن نغتمز عليه ما اغتمزنا على سواطع الإلهام ؛ فلا جَرَمَ أنه كتابٌ متفوق على السواطع في الخصائص المذكورة ، وبريء من مثل هذه المعايب والمثالب براءةَ الذئب من دم ابن يعقوب .

المقارنة بين رسول الهدى وبين در الأسرار :

" در الأسرار " : وهو أيضا مجموعةُ كلماتٍ توضيحيةٍ في ثنايا كلمات الله التامة على غرار سواطع الإلهام تمامًا ، إلا أنه أقلُّ من السواطع بضاعةً ، وأيسرُ منه تفسيرًا ، وأصغرُ منه حجمًا ، كما أنه أقل منه غرابةً، وأخفُّ منه ضعفًا ، وأسهل منه عبارةً .. ألفه محمود بن حمزة الحسيني الحمزاوي (المتوفى ١٣٠٥ هـ) بالحروف المهملة .

اعلم أنه إذا وُجِدَ في فنٍّ كتابانِ متماثلانِ في الصنعة والمنهج والغرض ، وكان المتأخر منهما دونَ المتقدم في الفائدة والمزية وتحقيق الغرض ، فلا جَرَمَ أن الثاني نسخةٌ استنسَخَها صاحبُها من الأول ، لا كتابٌ أَلَّفه مؤلفٌ ، والفضلُ كله يرجع إلى الأول بقدرِ ما فيه من النور والنار ؛ لأن مؤلِّفَه هو المبدع الذي صبَّ فيه جهدَه وعرقَه ، وأودعَه عُصارةَ دراستِه وخلاصةَ أفكارِه وحُشاشةَ تجاربه . أما صاحبُ الثاني فهو بالمتطفل الفضولي أشبهُ منه بالمبتكر الأصيل ؛ لأنه لم يحتج في نسخته إلى أن يعمل عملًا سوى أنْ يلتقط ويقتبس ويستنسخ ويرتِّب .

وخيرُ مثالٍ على ذلك أنه لو أراد أحدٌ أن يؤلِّفَ اليوم في السيرة النبوية كتابًا بحروف مهملةٍ بعد ظهور "رسول الهدى" مثلًا ، فإنه سيجد عملَه هذا أسهلَ شيءٍ عليه ؛ إذْ لا يجب عليه أن يفعل شيئًا سوى أنْ يستنسخ ويلتقط ويقتبس ويرتِّب . ولكن مثل هذا العمل لا يحمل أهميةً ولا يقام له وزنٌ ، وهو وإن استقطب اهتمامَ الطغام بصورةٍ آنيّةٍ ، لكنه كالزبد يذهب جفاءً ، ولا يلعبُ دَوْرَ الكتابِ الذي ينفع الناسَ فيمكث في الأرض .

على كلٍّ، فقد أُلِّفَ درُّ الأسرار بعد سواطع الإلهام بأكثر من مائتي عامٍ ، والمتأملُ لنصوصهما يجزم بأن الحمزاوي إنما سلك طريقًا عبَّدَها الفيضي، مقتبسًا من قبسه وناسجًا على منواله؛ لأن كثيرًا من عباراتهما واحدةٌ ، وأن تَشابُهَ الصياغات وتماثُلَ التعبيرات باديانِ في جميع سطورهما ، والأخيرُ أقلُّ من الأول بضاعةً، فأغلبُ الظنِّ أنه نسخةٌ منقولةٌ عن السواطع وصورةٌ مصغَّرةٌ منه.

ومهما يكن الأمر فإن كتابَ "در الإسرار" – وهو أقلُّ من سواطع الإلهام بضاعةً وعملًا – غيرُ مستوعبٍ للموضوع بطريق الأَوْلَى ، وفيه ما في السواطع من النقص والغضاضة على اختلاف نوع الأخطاء والمعايب ، وهاكَ بعض الأمثلة :

١ – : قد يخذُلُ الحمزاويَّ قلمُه في خَطِّ كلماتٍ معجمةٍ في ثنايا الكلام المهمل كما في قوله: الراكع حولَ سرير ملكه (ص:١٥) ، وكقوله في تفسير {المستقيم} : السويِّ ، وكقوله : حملا على المؤدي (ص:١١٩/ النساء) . والسرير والسويِّ والمؤدي : كلُّها منقوطةٌ.

٢ – : قد يختلق الحمزاوي أيضًا بعض الجموع كقوله : رواه أحد أروآئه الكرام (ص:١٥) . وجمع الراوي : الرُّواة ، لا : الأرْوِآءُ .

٣ – : قد يحذفُ الياءَ من الاسم المنقوص المعرف باللام كقوله : الهادِ محكم آرائه (ص:١٥) . ومثلُ هذا الحذف وإن وقع في القرآن الكريم لكنه أمرٌ مستكرهٌ في عامة الكتابات البشرية ؛ لأن رسم الخط القرآني أمرٌ توقيفيٌّ يُحفَظُ تعبُّدًا ، ولا يقاس عليه تعمُّدًا .

٤ – : قد ينعُتُ الكلمةَ المؤنثة بالوصف المذكر، كقوله: اللام الموطئ (ص:٣٤٧/ الأعراف) ، والصواب: اللام الموطئة.

فلما كان درُّ الأسرار نسيجًا على منوالِ سواطع الإلهام في لُحمتِه وسَداه ، وكان أقصر منه باعًا وأوْهَنَ منه خيطًا ، وأضحل منه ماءً ، كان أولَى أن لا يملك الخصائصَ الأربع المذكورة التي امتاز بها رسول الهدى بلا منازع في دنيا الإهمال .

المقارنة بين رسول الهدى وبين دواء المعلول:

" دواء المعلول" : هو مقالٌ وجيزٌ في ست وعشرين (٢٦) صفحةً، أعده السيد محمد بن أحمد بن عمر الشاطري بالعربية المهملة ، وقد عثرنا عليه على شبكة الانترنت وتصفحنا أوراقه ، فإذا هو صورةٌ مختزلةٌ موجزةٌ جدًّا عن السيرة النبوية في هذه الصفحات القلائل ، وهو فصيحُ اللسان إلى حد كبير ، لكنه مع وجازةِ بيانه وقلة بضاعته لم يسلم مما وقعت فيه أشباهُه ونظائرُه من الأخطاء والعِّلاتِ ، والهنات والزلات .. وهاك أمثلةً من ذلك :

١ – : استعمل الشاطري كلمةَ الأُسَراءِ للعباد كما في قوله: أرسل رسلَه إلى أسرائه وإمائه

(ص: ٢) . والأسراء جمع الأسير ، وهو المأخوذُ في الغزوة والمحبوسُ في السجن ، فإطلاقه على عباد الله مما يستقبحه الطبع والذوق واللغة .

٢ - : استعمل الشاطري كلمةَ المسك بمعنى الآخِر كما في قوله: ومِسْكُهم وأوّلهم (ص: ٢). والمسك لا يدل على معنى (الآخِرَ) : لا مطابقةً ولا تضمنًا ولا التزامًا .

٣ - : استعمل كلمةَ (أولو) استعمالًا خاطئًا في قولـه: آلُــهم وأُلُـوْهم (ص: ٣) ؛ لأنها لا تُضاف إلى الضمير وإنما تضاف إلى اسم الجنس دائمًا ، ولكنه أضافها إلى الضمير وعنى بها جماعةَ الصحابةِ (رضي الله عنهم) . وهذا خطأٌ نحويٌّ لا يغتفر. ثم إنّ (أولـو) تُرسم بـواوٍ زائـدةٍ بعـد الهمزة (أولو)، ولكنه رسمها بلا واوٍ ، وهذا خطأ رسمي أيضا.

٤ - : استبدل همزةَ (كُسْءٍ) بالواو بـلا قاعـدةٍ صرفيـةٍ كقولـه: إلى كُسْـوِ عمـره (ص: ٣)، والصواب : إلى كُسْءِ عمره.

٥ - : صاغ بعضَ العبارات صياغةً ركيكةً كقولـه: ومـا المـراد إلا ورودُ مـاءِ مدْحِـه الأرْوَى (ص: ٤) ، فقد أضاف المصدرَ إلى المفعول وأخَّرَ الفاعلَ على شاكلةِ (أعجبني ضربُ بكـرٍ زيـدٌ) ، وهو من موضوعاتِ بعض النحويين الخيالية المستكرهة ، والأَوْلَى : (ورودُ الأرْوَى مـاءَ مدحِـه) على غرارِ قولنا : (أعجبني ضربُ زيدٍ بكرًا) .

٦ - : عَطَفَ على الضمير المجرورِ عطفًا مكروهًا كما في قوله: وما هو له وآلـهِ السلام إلا سر (ص: ٨) . ومعلومٌ أن العطف على الضمير المجرور لا يجوز إلا بإعادة الجار.

٧ - : استعْمَلَ كلمةً غريبةً متنكرةً مهجورةً كقوله: ومر على ألك أعوام (ص: ١٣) . فكلمـةُ (ألك) استعملها بمعنى (ذلك) ، وهي كلمةٌ منكرةٌ ممجوجةٌ في غاية الشذوذ والتنافر.

٨ - : حَرَّفَ كلمةً إلى كلمةٍ أخرى كقوله : والدُ أُسَام (ص: ١٦)، فقد حرَّفَ لفظةَ أُسـامةَ إلى أسامَ بحذف التاء المربوطة ، ومثل هذا التحريف في غير المنادى المرخم يعد بشاعةً لغويةً.

٩ - : أضافَ المصدرَ مباشرةً إلى ما يجب أن يدخل عليه (عَـنْ) كقولـه: وعاهـدوا الرسـول أولًا على الطوع والسمع وحِمائه (ص ١٨). والحماء مصدرُ حامَى عن أحـدٍ محامـاةً وحِمـاءً إذا دافـع عنه ، والضمير للرسول ﷺ ، والصواب : والحماءِ عنه .

هذه نماذجُ قليلةٌ لما في هذا المقال الوجيز من المكروهات اللغوية ، وهي تكشف للعيون عما يحمله المقالُ من المكانة الأدبية إزاءَ كتابِ "رسول الهدى" في خصائصه الأربع المذكورة سابقًا. ومَنْ منا يجهلُ أن الذي لم يسلم من الأخطاء مع أنه في ٢٦ صفحةً ، لنْ يُدانِيَ منزلةَ الذي تنزَّه عن الأخطاء وهو في أكثر من ٤٠٠ صفحة !

المقارنة بين رسول الهدى وبين خطبة الحريري:

خطبة العلامة الحريري ليست بكتاب ولا مقال ، وإنما هي خطبةُ جمعةٍ في ثلاث صفحاتٍ ونصفٍ ، وضعها الحريري ضمن مقامته الثامنة والعشرين السمرقندية . والخطبةُ جزلةُ الألفاظ فصيحةُ الكلم ، ولكنها – مع ذلك – لم تكن بريئة من شوائب النقص وسماته ، فقد وردت فيها سبعٌ وعشرون (٢٧) كلمةً منقوطة ، وهي:

(للملةِ – لأدلةِ – الصلاةَ – للرحلةِ – مساورةَ – مصارمةَ – سكرةَ – وحدةَ – روعةَ – مداومةُ – مواصلةُ – مُعاصاةُ – الساعةُ – الساهرةُ – الطامّةِ – مُرصَدةٌ – العصاةِ – الحطمةُ – المؤصدةُ – طاعةَ – الصحةُ – كاملةً – السلامةُ - حاصلةً – حسرةً – الرحمةَ - مِلَّةِ).

ولعلَّ الحريري لا يعُدُّ الكلماتِ ذاتَ التاء المربوطة معجمةً، ولكن مؤلف رسول الهدى يرى أن النقطةَ نقطةٌ حيثما كانتْ ، وأما قراءةُ التاءِ المربوطة هاءً عند الوقف فشيءٌ آخرُ يرجع إلى فنِّ القراءات ولا علاقةَ له بالنقط وغير النقط . ومن ثم شَرَطَ مؤلفُ رسول الهدى على نفسه شروطا قاسية ، فلم يرضَ في صناعة الإهمال ما رضيَه غيرُه من قليل القبح أو كثيره ، فلم يأتِ في كتابه بلفظٍ ذي تاء مربوطةٍ : لا بجعلِها هاءً كما فعل الفيضي ، ولا بعَدِّها مهملةً كما فعل الحريري . فمثله كمثل البخاري شَرَطَ في اتصال السند شرطًا صارمًا ، فلم يكتفِ بمطلق المعاصرة كغيره ؛ وإنما شرط لذلك ثبوتَ اللقاءِ بين الراوي ومن رَوَى عنه . فلا جَرَمَ أنَّ لرسول الهدى على سائر الكتب المهملة مثلَ فضلِ صحيح البخاري على سائر كتب الحديث .

المقارنة بين رسول الهدى وهادي عالم:

"هادي عالم": هو كتابٌ في السيرة النبوية باللغة الأردية المهملةِ الحروف لفضيلة الشيخ ولي رازي الباكستاني / حفظه الله . ولعله أولُ كتاب بالأردية قد استوعبَ موضوعَه في صناعة

الإهمال، واجتمعت له خصائصُ اللغة الأردية من حيث الأدبُ والإنشاءُ .

هذا ، وربما يستنكر الناس هذه المقارنةَ بين الكتابين ظنًّا منهم أن المقارنة إنما تكون بين القرين والقرين ، لا بين الضد والضد ، وأن هذا بالأردية، وذاك بالعربية ، فهذا في وادٍ ، وذاك في وادٍ ! ولكننا ما تصدينا لعقدِ المقارنة بينهما – على اختلافِ لُغتيهما وتباين طبيعتيهما – إلا لأمرين اثنين : أحدهما أن هذه المقارنة لا تُعقد بين الكتابين فحسب ؛ وإنما تعقد بين كتابة الإهمال باللغة العربية وبين كتابته باللغة الأردية ؛ ليعرف الناسُ فرقَ ما بينهما على وجه البصيرة.

والأمر الثاني هو ما قاله مؤلفُ "هادي عالم" في مقدمته ، فتبعه جمهورُ الناسِ يرددون قولَه رجمًا بالغيب، قائلين : (الكتابةُ بالعربية المهملةِ إنما هي عملٌ سهلٌ وأمرٌ عاديٌّ . أما الكتابة بالأردية المهملة فهي غايةٌ في الصعوبة والعسر ، وأدعَىٰ إلى العجب والاستغراب ؛ لأن اللغة العربية لغةٌ واسعةٌ غنيةٌ ، واللغة الأردية لغةٌ ضيقةٌ مفلسةٌ) .

مع أن الأمر على عكس ما فهموه تمامًا ، وقد سلَّط مؤلف "رسول الهدى" الضوء الكاشفَ على هذه القضية في الهامش من مقدمة كتابه إذ قال :

(إن اللغة العربية ـ على سعتها ـ أضيق من اللغة الأردية وأقصر في مضمار صناعة الإهمال ، وذلك لأربعة أوجه ، أولًا : الحروف المهملة للعربية ١٤ حرفا فقط من بين حروفها الهجائية التسعة والعشرين ، والحروفُ المهملة للأردية ١٩ حرفًا من بين حروفها الستة والثلاثين. وثانيًا : العربيةُ لا تقبل كلمةً من أية لغة أخرى ، والأرديةُ كلّما احتاجتْ إلى كلمةٍ أخذتها من اللغات الأُخرى كالعربية والفارسية والهندية والإنجليزية ونحوها . وثالثًا: الأسماءُ ذاتُ التاءِ المربوطة (كمكة ومعركة وعمرة) كلُّها منقوطةٌ في العربية ومهملةٌ في الأردية . ورابعًا : الأسماء المنقوصة (كالهادي والحامي والداعي) ، والأسماءُ الجاريةُ مجرَى الصحيح (كوليّ وعليّ وكرسي) ، والأسماءُ المنسوبة (كسَماوِيّ ومكّيّ وإلهي) كلُّها منقوطة في العربية ومهملةٌ في الأردية .. إلخ).

إذنْ فلئن جُرِّدت اللغةُ العربية عن أمثال هذه الكلمات المعجمة كلها، فقد تنازلتْ العربيةُ عن ثُلُثَيْ مذخورِها اللغوي .. مما يجعل كتابةَ الإهمال بالعربية أضيقَ نطاقًا وأشدَّ صعوبةً من كتابته بالأردية . فلو كان صاحبُ "هادي عالم " قد جرَّبَ قلمَه في صناعة الإهمال بالعربية، لَتَحقَّقَ صِدْقَ ما ذهبنا إليه ، ولَمَا قال ما قال في مقدمة كتابه .

على أن الكتابين – على اختلاف لسانيهما وتنائي داريهما – ليسا كفَرَسَيْ رهانٍ في حلبة الفصاحة ، ولا كَعِدْلَيْ بَعيرٍ على مِنظارِ الأدب، بل هما متفاوتان في مراتب الكمال ، ومتفاضلان في مرايا الجمال . فرسولُ الهدى في عالم العربية أفصحُ لسانًا وأبلغُ أسلوبًا وأروعُ صياغةً وأحسنُ أدبًا من هادي عالم في عالم الأردية . فلو أنك تلمستَ المحسناتِ الأدبية في هادي عالم ، لم تجد إلا فقراتٍ معدودةً على الأصابع في ثنايا صفحاته المتباعدة ، وهي التي سجّلها شيخ الإسلام المفتي تقي العثماني/ حفظه الله كنموذج في مقدمته التي قدمها للكتاب .

أما إذا تلمستَ المحسناتِ الأدبية في رسول الهدى ، فإنك سترى في أكثر صفحاته سطورًا تعجبك ، وجملًا تسرك ، وعباراتٍ تستوقفك ، وفقراتٍ تستهويك ، وتعبيراتٍ تستأسر قلبك، وتشبيهاتٍ تُغازِلُ فؤادَك ، وتنوعاتٍ تجدِّد شوقك ، فلا تعلم أيَّها تأخد وأيها تَدَعُ !

وحين تفتحُ الكتاب وتقرأ منه بضعةَ سطور ، تشعر بلذة غريبة تزيدك حبًّا وحنانًا نحوَ رسول الله ﷺ وتملأ قلبك إيمانًا بعظمة شخص النبي ﷺ وعلو مكانته وسمو أخلاقه، وربما تفيض عيناك من الدمع وَجْدًا على نبيك الحبيب المحبوب . وقد تشعر في بعض الفقرات بأن صناعة الإهمال هي التي زادتِ الكلامَ قوةً وإحكامًا ورونقًا وبهاءً .

تصوَّرْ مبلغَ سرورِ عبد المطلب وهو يتلقى نبأَ حفيده المولود ، فيطير إلى البيت ويحمل الصبيَّ على كتفيه وقد بهره جماله المدهش الغريبُ وراعه منظرُه البهيج العجيب ، فيهرول به إلى الكعبة، ويطوف به حولها أشواطًا وهو يحمد الله على هذه النعمة الإلهية :

[سَرىٰ أمرُ المولودِ إلى كلِّ دُور أمِّ الرُّحم [1]، وأسرَعَ إلى الدار والدُ والدِ الرسول ، ولَمَحَ إلى المولودِ لَمْحًا مِلْؤُه الودُّ والرَّوحُ ، وطِلاعُه الأملُ والطُّموحُ ، وراعَه رُواؤه ولألاؤه ، وسُرَّ أكملَ السرور لمرآه، وحملَه على كاهلِه مسرورًا ، وطار إلى دار الله الحرام مَرَحًا وسرورًا ، ودار معه حولَها مرارًا ، وركد لدٰى أحدِ حوائط الدار مُحَمْدِلًا] ..

تخيَّلْ حالَ النبي الرضيع ﷺ كيف كان يترعرع وينمو ، ويتحرك مهدُه وهو عليه راقدٌ ، وكيف يتلقفه أهلُ بيته حينَما يصيح أو يبكى :

---

(١) أمُّ الرُّحْمِ أو أمُّ رُحْمٍ : اسم مكة المكرمة (معجم أسماء الأشياء). وقد ورد هذا الاسم في صحيح البخاري تحت قوله تعالى: {وَأَقْرَبَ رُحْمًا }، إذ قال : " وتُدعَى مكةُ أمَّ رُحْمٍ أي الرحمةُ تنزل بها". (البخاري رقم : ٤٧٢٦)

[راح المولودُ على كِلاءِ الله مُرَعْرَعًا [١] مكلوءًا محروسا ، كلما مرَّ سحرٌ ، طال المولودُ طُوْلًا محسوسًا ، وكلما رَكَدَ على مَهْدٍ ، حرَّك الملائكُ مهدَه حامِصًا [٢] ، وكلما صحا أو صاحَ ، حَمَلَه الكلُّ على كاهله مسرعًا ، وهَدْهَدَه مدلَّلا] .

أَعِدْ ذِكْرَىٰ طفولةِ النبي ﷺ في بيت حليمة السعدية وهو يجري ويعدو، ويرتع ويلعب، وقد يسوق الغنم إلى المرعى الأخضر. ولكنه كان يمتاز عن سائر الأطفال واللِّداتِ بطهر النفس ، وسجاحة الخلق ، ورجاحة العقل ، وحكمة الكهول :

[راح - محمدٌ المولودُ - مَرِحًا مَرَحَ الأولاد ، مُهَرْوِلًا على رمال المهاد، صادِحًا صُداحَ المعصوم، مُسارِعًا حولَ الرمل المركوم . طورًا سعٰى مع الأولاد إلى العَراء، ومَالَ إلى اللّهو والعَدْوِ وسطَ الرمال الوعساء ، وطورًا سَرَحَ السوائمَ إلى الأمراع .. وهو - إلى ما سُطِرَ - راح سائرًا على الأصول ، مكلِّمًا كلامَ الكهول ، طاهرًا طُهرَ الصلحاء ، حاملًا آراءَ الحكماء ، وَرِعًا كملائكِ السماء ، معصومًا مما عاوَدَه أولادُ الحواء] .

اِسْتَحْضِرْ مَشْهدَ فجيعةِ رسول الله ﷺ وهو طفل في السادسة من عمره ، وقد فقد أمَّه الحنون في الطريق المنعزلة النائية عن مكة ، وليس معه إلا أمةٌ :

[وما أَدْرَاكَ لعلَّ محمدًا المولودَ المعصومَ لما عَدِمَ أمَّه وسطَ الممرّ ، أمسٰى مكلومَ الصدر ، مكسورَ الرُّوع ، ساهِمَ المحسر ، سائلَ المدامع ، مرحومَ الحال ، مُدْلَهِمَّ المآل .. ولو صَوَّرَه رسَّامٌ ماهرٌ ، لصَوَّرَه كطائرٍ صاعدٍ حالَما كُسِرَ له مِلْمَعٌ مالَ له مِلْمَعٌ [٣] ، وصار : لا هو حَاطٌّ على المهاد محطًّا ، ولا هو صاعدٌ إلى السماء مَصْعَدًا] .

اذْكُرْ كيف كان شبابُ النبي ﷺ وكيف تلقى العلم والحكمة والتربية والتزكية يومَ لم يكن وسطَ بطحاءِ مكةَ كُتّابُ تعليمٍ ولا مدرسةُ تربيةٍ ولا زاويةُ تزكيةٍ وإحسانٍ:

[رَعْرَعَ الله محمدًا رسولَ الله أَسْرًا وملامِحَ ، وحَلّاه كرَمًا ومَمادحَ ، وسوّاه طُهرًا وصُلُوحًا ،

---

(١) رعرع الله الصبيَّ، إذا أنبته الله نباتا حسنا. (القاموس المحيط)

(٢) أي: كان مهده يتحرك بتحريك الملائكة. (الخصائص الكبرى والسيرة الحلبية)، وحامصًا : أي متأرجحًا على الأرجوحة . والملائك والملائكة كلاهما جمع الملك . (المعجم الوسيط)

(٣) المِلمَعُ : جناح الطائر، يقال : خفق الطائرُ بمِلْمَعَيْهِ . (تاج العروس)

وطَوَّرَه علما ورُوحا . ما راحَ لرسول الله وسطَ أوائل عُمره مُعَلِّمٌ ، ولا دَرَسَ على مُـدَرِّسٍ ، ولا رأى وسطَ الصحراءِ معهدَ عِلْمٍ ولا مَدارِسَ حِكَم . راح مُعَلِّمُه هو اللهَ وحـدَه دَومًـا ، وهـو المَهِّـدُ لـه وسائلَ العلمِ إلهامًا ، والممدِّدُ له سَلالِـمَ الحِكَم رُؤًى وأحْلامًا] .

اقرأ حالَ خديجةَ ومالَها ، وقد سمعتْ عن روائعِ أحوالِ الرسول على لسان غلامِها، فوَجَدَتْ في رسولِ الله ﷺ أفضلَ شريكٍ لحياتها المنفردة الموحشة المملّة :

[العَروسُ الأُوْلى عَروسٌ أصلُها صُراحٌ ، ومَكارمُها صِحاحٌ ، ومالُـها رَحْراحٌ ، وعُكومُهـا رَداحٌ .. لما حَكَى لها مملوكُها روائعَ أحوالِ محمدٍ - صلى الله على روحه وسـلم - وسـواطعَ أطـوارِه ، ورَوْى لها حوارَ العالِم ، أدرك صدرُها المهمومُ أحلى مُسامِرٍ لأَصَائلِ سُهادِها، وأَوْلى مُساهِمٍ لمراحلِ عُمرها، وأرحَمَ مُؤاسٍ لكُلُومِ رُوْعِها ، وأكرمَ رِدْءٍ لإسعادِ مآلها ، وأعلى عِرْسٍ طَالما طَمَـحَ إلى مـرآه عـرائسُ العالَم وسلائلُ حَوّاءَ وحُوْرُ دارِ السلام] .

انظُرْ إلى بيتِ الرسول ﷺ وقد كان خاليا إلا من اثنين ، فرزقه الله بنين وبنات ، ففاض البيـتُ بالنعمة والسرور والبهجة والحبور ، وتحول إلى حديقةٍ غناءٍ تمرح تحت ظلالها طيورُ الجنةِ ، وتصدحُ فوقَ أفنانِ شجرها أسرابُ البلابل والشحارير :

[ومَلأَ اللهُ مَهْدَهما أولادًا وولائدَ ، وَلَدَهم كُلَّهم أمُ الصُّلَحاء العَروسُ الأُوْلى وحـدَها / سـلام الله على روحها . وما مرَّ دهرٌ إلّا وصار الأولادُ وسْطَ الدار، كالورود الحمراء على الأكمام ، وكالطَّلِّ الهامع على دَحْسِ الآكام ، وكالمُلْكِ الواسع لوَلَدِ دَاوُود، وكسرور الهائم لدَى الـوِرْدِ المـورود؛ وحـلَّ اللهوُ والصُّداحُ محلَّ الهمِّ والهمود ، وسَدَّ المرحُ والسرورُ مسَدَّ الكلل والملل] .

طالِعْ خُلُقَ النبي الأكرم ﷺ ولِيْنَ جانبِه ، ومعاملتَه الحسـنة مـع النـاس ، وحديثَـه المعسـول الصادق مع أحبته ، وكلامَه العذب الزلال المؤثر مع أعدائه :

[.. وما آلَـمَ رسولُ الله طَوالَ عُمرِه امرءًا ، ولا أراد لعدوٍّ سُوءًا، ولا أساء إلى مملوكٍ سلوكًا ، ولا دَعَّ لأمرٍ صُعْلُوكًا ، ولا ردَّ السائلَ محرومًا ، ولا كلَّـمَ أرداءَه أو أعـداءَه إلا كـلامَ وُدٍّ : معسـولًا كالسُّكّر، حُلْـوًا كالعسل ، صَحْوًا كالسماء ، مسرودًا كالأعداد، ساطعًا كالأَلْماس ، صُراحًا كالسَّلْسال، آسرًا كالسِّحْر الحلال] .

تَذَكَّرْ مَنظرَ دعوةِ النبي ﷺ وهمّتَه القعساء وقُوّتَه الشـّماء ، وسَـيْعَه الطويـل وكِفاحَـه النبيـل ، وكيف ثبت أمام مصائب الدهر وزلازلِه، دونَ أن يفتُرَ أو يَكِلَّ أو يتقهقر:

[على كل حالٍ ، راح رسول الله - صلى الله عـلى رُوحِـه وسـلم - أمـامَ كـلِّ صَـوَاكِمِ الـدهر، صامدًا كطُورِ مُوسٰى والطودِ الـمُرْسٰى والدَّوْحِ الواطد . ما أوْهَاه مِعْوَلُ عَـدُوٍّ ، ولا حَلْحَلَـه إعصـارُ دهرٍ .. راح سائرًا إلى الأمام ، صاعدًا على الآكام، مُواصِلًا للأمل ، مُدَاوِمًا على العمل : حاول وصالَ، وكدَّ وكدحَ ، ودعا وسَعٰى] .

هذا كله غيضٌ من فيضٍ ، وقطراتٌ من غيث ، وهذا القدر يغنينـا عـن الإكثـار مـن عـرض النماذج، والاستزادة من سرد الأمثلة ، ولا سيما والكتابُ كله أمامك مفتوحُ الكنوز، داني القطوف، فاقرأه بنفسك وانظر فيه بعينك ؛ فليس الذكرُ كالمطالَعة ، وليس الخبر كالمعاينة.

***

هذا ، ولا يفوتني هنا أن أقول : إن كتابةَ الإهمال – سواءٌ بالعربيـة أو بالأرديـة – كثـيرا مًـا تصوغ الكلامَ في قالب غير قالبه الطبيعي ، وتكسوه لباسًا غير لباسه العاديِّ ، وتسير به على طريـق غير طريقه المألوف . وهذا مما لا محيصَ عنه لكل مَنْ خاضَ غمارَ الإهمال ، حتى لَترى أثـرَ ذلـك في بعض مواضع "رسول الهدى" أيضًا، كما اعترف به مؤلفه بنفسه إذ قال :

[ومعلومٌ لـدٰى أمراء الكلام حالُ إعدادِ الكلام عـلى الكَلِمِ المهمَلِ ؛ كلُّ كلامٍ مهمَلِ الكلِـمِ مُـؤدٍّ - مرارًا - إلى العدول عما هو الحوارُ المعهود، ولو سَرَّ أهلَ العلم أمرٌ مما حواه رسولُ الهدٰى، لَصار مـردُّه إلى الله وكرمِه وعطائه، ولو ساءهم أمرٌ مما حواه، لَعاد مردُّه إلى المحرِّر وعدمِ علمِه واطّلاعِه].

ولكن مع ذلك كله فإن كتابَ "رسول الهدى" يمتاز عما سواه بخصائصه ومميزاتـه ، كـما أقـرَّ بذلك الباحثُ يعقوب الأعظمي قائلًا : (ومع ذلك كله الكتـابُ سـاطع في مجموعـة مـن الكتـب المؤلفة في صنعة الإهمال كالقمر وسطَ النحوم) . [١]

ذلك لأن "رسول الهدى" أوّلُ كتابٍ مُهمَلٍ ، قلَّ فيه أثر التكلف ، وتقلص عنه ظلُّ الصنعة، وغلب عليه أثرُ الطبع ، وكساه طابَعُ الارتجال والاقتضاب ، بالنسبة إلى ما عداه من الكتب العربيـة

(١) مقتبس من : مجلة الثقافة الإسلامية المذكورة سابقًا، ص: ٢٢/).

المهملة أو الأردية المعراة جمعاء. وكأن كلامه كلامٌ منسكبٌ انسكابًا ، وجارٍ جريًا يزيد من لُطفه على الطبع ، بقدر ما يزيد الطبع على التصنُّع .. معناه أقوَم من لفظه ، ولفظُه أرشق من وزنه ، وبعضه أغربُ من كله ، وكلُّه أعجبُ من بعضه ..

ولقد صوَّرَ الباحثُ يعقوب الأعظمي مشاعرَ القارئ وانطباعاتِه التي عَسى أن تنطبعَ في سُويداءِ قلبه أثناءَ قراءتِه للكتابِ ، حيث قال :

(وإذا جلستَ معه – مع الكتاب – ساعةً أو ساعتين تشم فيه مسكًا فائحًا ورائحةً زكيةً تعطرك بحب رسول الله ﷺ وترى نفسك في غابة من الورود والزهور تستهويك ولا تريد الخروج منها .. وإذا تذوقتَ منه وارتويت تشعر أنك تناولت عسلًا معسولًا وشربتَ عذبًا فراتًا . كما تجد عملَ المؤلف في كتابه كالنحلة تمتص من رحيق الأزهار وتأكل من الثمرات ثم تحوله إلى عسل مصفى ، أو كالمغامر صعد الجبلَ بمعوله وحطم الصخرةَ ففجَّر ينبوعًا سائغًا شرابُه ، أو كغوّاص ماهر نزل في بحر اللغة وانتهى إلى عمقه فأتي بمكنونات اللغة وفرائدها وشق أصدافها فأخرج لؤلؤا مكنونًا ودرةً يتيمةً لا نظير لحسنها) . [١]

ولقد قرأتُ الكتاب كله فَطِبْتُ به نفسًا وقَرِرْتُ به عينًا، ورضيتُ به مأثرةً ، وبمحتواه سيرةً . ولَطالما استوقفتْني بعضُ فقراته أثناءَ القراءة ، فوقفتُ عندها وِقفةَ المتحير ، وتعجبتُ : كيف تَخيَّرَ المؤلفُ الكلمَ المهملَ للتعبير عن المعاني والأحاسيس ، وكيف انثالتْ على يراعته الألفاظُ المنشودة لدى تصوير الحقائق الثابتة ! لا جَرَمَ أن التوفيقَ كانَ حليفَه في هذا العمل ببركة سيرة النبي الأكرم ﷺ ، وإلا لما استطاع أن يخرج هذا الإنتاجَ الأدبي العظيم.

وكتبه :

أبو سعد القاسمي / آسام

٢٢/ رجب / ١٤٤٠ هـ

(١) مقتبس من : مجلة الثقافة الإسلامية المذكورة سابقا ، ص: ١٨) .